المظَاهِرُ الحَضــارِيَّةُ في شِـعْرِ عَلِـيِّ بنِ الجَـهـــــم

م. أميرة محمود عبدالله
كُـلِّيةُ الآدابِ-جَامِعَة بابـل

المُلخص

هذا البحث محاولة للكشف عن مظاهر الحضارة في العصر العباسي في شعر أحد شعراء ذلك العصر وهو علي بن الجهم, وقد وقع الاختيار على هذا الشاعر لسببين رئيسين, **الأول**:يعود إلى السمة الأسلوبية التي ميَّزت شعره,وهي طابع التصوير المُـلْفِت للنظر الذي مثل ظاهرة في شعره, و كان من المتميزين فيه.**الثاني**:تأثره بمظاهر الحضارة في عصره, سواءٌ أكانت المادية المتعلقة بمظاهر العمران وأدوات الحياة,أو المعنوية المتصلة بالعقيدة الإسلامية ونظام الحكم في دولة الإسلام, وهو من الشعراء الملتزمين في شعره,وقد اعتمدت هذه الدراسة آلية انتقاء النماذج التي تتجلى فيها مظاهر الحضارة بوصفها عيِّنات للتحليل ولاسيما أنّ الشاعر كرر قسما من المظاهر الحضارية في ديوانه.

المــدخـــل :

الحضارة ... دلالاتها وعلاقتها بالشعر :

ليس غرضي في هذا المدخل بخاصة والبحث بصورة عامّة بيان دلالة " الحضارة " وشرح مفهومها لدى أهل الاختصاص ، وإنما الكشف عن أثرها في احد أهم أنشطة الإنسان الجمالية ، وهو الشعر ، ولكن لابد من الوقوف قليلاً عند مفهومها ، لأن إدراك المفهوم لازم لتبيُّنِ كيفية الأثر وآلياته في الشعر .

وقد اختلف الباحثون في تحديد دلالة " الحضارة " ، كل منهم انطلق من زاوية نظرٍ تختلف عن الآخرين ، ومما لاشك فيه وجود علاقة تلازمية بين الدلالة اللغوية والدلالة الاصطلاحية لمعظم الألفاظ ، ولذلك فثمّة علاقة دلالية مفهومية بين الدلالة اللغوية للحضارة و دلالتها الاصطلاحية ، فالحَضارةُ والحِضارة والحُضورُ مصادر الفعل الثلاثي (حَضرَ) ومعناه :((إيراد الشيء وورروده ومشاهدته))[1] ، والحضورُ ضِدُّ الغَيْبة[2] ، ومما يُستوحى من معنى الحضور دلالة إثبات وجود الذات أو الأنا بوصفها ذاتاً أو أناً فاعلة لها تأثيرها في مكان وجودها وزمانه ، وسميت الحاضرة بهذا لأن أهلها الحضريين حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[3] ، ومن المفترض أنَّ لكل فرد من أهل الحاضرة حضوراً وأثراً في بيئته أيَّاً كان ذلك الحضور وماهية الأثر .

وأما الدلالة الاصطلاحية فثمة تعريفات كثيرة للدارسين وكُلُّها تتناولُ النشاط الإنساني،إلا أن منهم من فرّق بين آثار النشاط الإنساني المادية المحسوسة والآثار المعنوية المجردة أو العقلية المحضة ، ووضعوا تعريفاتهم تبعاً للوصف المذكور ، وآخرون جمعوا بين تلك المظاهر بوصفها صادرة من الإنسان نفسه وتمثل وجهاً من الوجوه المميزة للإنسان عن غيره من المخلوقات ، وهذا ليس مناط اهتمام الباحث ،إنّما هدفه الكشف عن تلك المظاهر التي تمثل خصالاً وسماتٍ مميزة للمجتمع الإنساني المتحضر من المجتمع غير المتحضر أو البدائي ، وهذه الحضارة شاملة كُلَّ أنواع النشاط الإنساني,ومنها الأدب بعامة والشعر بصور خاصة.

ومن الجدير بالذكر قبل الولوج في تعريف الحضارة ومتعلقاتها ومظاهرها, التنبيه إلى أن تراثنا العربي الإسلامي عني بهذه المسألة قبل الفكر الغربي بقرون ، وليس هذا بغريبٍ على حضارة عريقة كحضارتنا ، فقد وظَّف ابن خلدون هذا المصطلح بمفهومه المعاصر في مقدمته الشهيرة عندما دوّن فصولها التي تناولت : (("العِمران في البدو والحَضَر " و " انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة " و " الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنَّها مؤذنة بفساده")) [4] ومن المعروف في العصر الحديث وجود ثنائيتين متلازمتين تصفان نوعي النشاط الإنساني المتمثلين بالنشاط الفكري ويتصل بما يعرف بالثقافة ((culture)) [5] والنشاط المادي المتعلق بالحضارة ((civilization)) ، ولذلك فإن هذا الاتجاه ميّز بين الحضارة التي تتضمن الآلات والتقنية والعوامل المادية وبين الثقافة التي تتضمن المُثُل والمنجزات الفكرية

---

[1]() مقاييس اللغة ، ابن فارس :251.
[2]() مختار الصحاح ، مادة حَضَر : 141 .
[3]() ينظر : لسان العرب ، ابن منظور :3/215.
[4]() ينظر : مقدمة ابن خلدون :139.
[5]() قسم من المعجمات الانكليزية ترجمت " culture " إلى : ثقافة وحضارة، ولم تفرق بين هذين المعنيين . ينظر : المورد ، منير البعلبكي: 238 .

والفنية والأخلاقية الراقية[6] ، وهناك اتجاه مغاير تماماً لهذا الاتجاه وهذه الرؤية ، إذ إن مناصري هذا الرأي لم يميزوا بين نوعي النشاط الإنساني ، بل نظروا إليهما بوصفهما نابعين من مصدر واحد هو الإنسان ، ولذلك فقد رأوا في الحضارة أنها ((ثمرة كُلِّ جهدٍ يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواءٌ أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً أم غير مقصودٍ ، وسواءٌ أكانت الثمرة مادية أم معنوية)) [7] .

ولا يعنينا من المنهجين السابقين سوى ما يشير إلى أنَّ الثقافة والحضارة تمثلان نشاطاً يميز الإنسان ويضعه في مرتبة مغايرة لمجتمع الحيوان ، بل ويميز المجتمع الإنساني المتحضر من غيره من المجتمعات البشرية غير المتحضرة [8]، وفضلاً عن ذلك فإن الحضارة والثقافة تشيران إلى مجمل أسلوب الحياة لدى شعب ما من الشعوب ، والحضارة في وجه من وجوهها تمثل ثقافةً على نطاق أوسع ، وكلاهما أي الحضارة والثقافة تشمل المعايير والقيم والمؤسسات وطرائق التفكير التي علّقتْ عليها أجيال متعاقبة أهمية أساسية في المجتمعات المتحضرة[9] .

وفي الحضارة العربية الإسلامية يختلف الأمر وتتغاير المقاييس عن غيرها من حضارات الأمم الأخرى ، إذ إن الحضارة في المجتمع المسلم في أساسها تستندُ إلى العقيدة الموحى بها إلى الرسول الكريم محمد – صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، تلك العقيدة أعطت للعقل مكانة متميزة جعلته يأتي في مرتبة تالية لمرتبة الوحي والنقل ، ويقوم العقل في التشريع الإسلامي بدور المستنبط المحلل للنصوص القرآنية وأحاديث الرسول – صلى الله عليه وعلى آله و سلم - [10] .

وهذا البحث سيتبنى الرأي الذي نظر إلى مصطلح الحضارة بكونه وصفاً لمستوىً معينٍ من مستويات النشاط الإنساني الفكري والمادي ، وإذا كان الاستقرار في الحواضر يولد في الإنسان دافعاً نحو تطوير حياته ، فإن الرُّقيَّ الإنساني بجانبيه يمثل كُلاً لا يمكن تجزئته أو هكذا ينبغي أن يكون ، ولاسيما أنَّ الاستقرار النفسي لدى الإنسان سيدفعه إلى ((التفنّن في الترف واستجادة أحواله ، والكلف بالصنائع التي تؤنِّق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المُهيِّئة للمطابخ والملابس والفُرُش)) [11] ،وهذا ما وجدناه في المجتمع العباسي الذي يمثل عصر شاعرنا عليِّ بن الجهم ، إذ شهدَ ذلك العصر نهضة شاملة في نواحي الحياة الفكرية والمادية ، وكان اثر ذلك واضحاً في الشعر العربي الذي يمثل تلك الحقبة ، وتجلّى في عناصر الشعر كافة سواء في المضامين أم في الشكل والألفاظ والتراكيب ، وكان شعر علي بن الجهم نموذجاً تتجلى فيه مظاهر الحضارة ، والشاعر قبل أن يكون شاعراً فهو إنسان ينتمي إلى بيئة يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، تؤثر فيه ويؤثر فيها ، ولكنَّ أثرها فيه يكون اكبر في معظم الأحيان ، والواقع أن ما لدى الإنسان من قدرة على التقدم والترقي يعود إلى ما يعرف لدى ذلك الإنسان بالتأثر والتفاعل مع المحيط أياً كان نوع التفاعل ايجابياً أم سلبياً[12] ، والشاعر يمتلك وسيلته الخاصة للكشف عن التأثر بالبيئة ، سواء أكانت تلك الوسيلة كفاءة ذاتية تتمثل بشعوره المتفرد ، وحدْسه المرهف ، أم بعُدَّته اللغوية التي يستعين بها لتجسيد تأثره ، وسنحاول في الصفحات اللاحقة تجلية مظاهر الحضارة في شعر علي بن الجهم ، وتشمل المظاهر الفكرية والعناصر المادية التي وجدنا آثارها في شعره متجلية بارزة .

المظاهر الحضارية في شعر علي بن الجهم :

قبل الكشف عن المظاهر الحضارية في شعر ابن الجهم ، لابد من الحديث عن حياة الشاعر وترجمة سيرته الشعرية ، ليتجلى أمامنا نوع المظاهر الحضارية في شعره ، ومدى تأثره بالبيئة التي حوله .

---

[6]() ينظر : صِدام الحضارات ، صامويل هنتنجتون: 68 .

[7]() الحضارة ، د. حسين مؤنس : 13 .

[8]() من المهم الإشارة إلى أن القرآن الكريم لفت الأنظار إلى مجتمعات متحضرة من غير البشر وتتمثل بأمة النحل والنمل. ينظر:سورة النحل,الآيتان68و69,وسورة النَّمل,الآية18.

[9]() ينظر : صِدام الحضارات: 69 .

[10]() ينظر : مكانة العقل في الفكر العربي ، مجموعة بحوث الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي : 17و18 .

[11]() مقدمة ابن خلدون : 139 .

[12]() ينظر : مشكلة الإنسان ، د. زكريا إبراهيم :60و61 .

أما الشاعر فهو عليُّ بن الجهم[13] ينتمي إلى أسرة مرموقة في المنصب والأدب وكانت ولادته في حدود سنة 188هـ وأما وفاته فكانت في شعبان سنة 249هـ في إحدى رحلاته إلى الغزو بعد أن خرج إليه ركب من قبيلة كلْب في حلب[14] ، والخلفاء الذين عاصرهم: المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل[15] ، وتركت الحوادث التي حدثت في سني أولئك الخلفاء أثرها في أشعار الشاعر ، واستأثرت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي بنصيب وافر من شعره ، إذ إنَّه لم يترك شيئاً من مظاهرها إلا وتأثر به .

ومن ابرز مظاهر الحضارة في العصر العباسي كثرة الأموال وفيضانها ، هذه الكثرة غير الطبيعية لم تدفع إلى النعيم فحسب ، بل إلى الترف في الحياة ومتعلقاتها المادية من دور كزخرفة وفرش وثيرة ، وثيابٍ أنيقة مُعطَّرة ، ومطاعمَ ومشاربَ من كل لونٍ فضلاً عن انتشار أدوات الزينة والتفنن بها تفنُّناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة ، وقد صاحب هذه المظاهر الحضارية المادية عناصر أخرى تتعلق بالفكر وحرية الرأي[16] ودخول النتاج الحضاري الفكري إلى الحضارة الإسلامية عن طريق الترجمة عن تراث الأمم الأخرى كالروم والفرس والهنود ، كل ذلك كان له أثره الواضح في الشعر العباسي آنذاك ومنه شعر ابن الجهم .

وعند فحصنا المظاهر الحضارية بأنواعها كلها في شعر ابن الجهم نجد أنَّ تلك المظاهر قد كثرت كثرة ملفتة للنظر ولاسيما ما يتعلق بمظاهر الحضارة الفكرية المتمثلة في الجانب العقدي المتصل بعقائد الإسلام وفي الجانب السياسي المتعلق بشؤون الخلافة والخلفاء وألقابهم والمصطلحات التي تنضوي تحت المضمون الإداري في الدولة العباسية ، وهي مفاهيم مأخوذة من النظام السياسي في الإسلام منذ عهد الرسول – صلى الله عليه وعلى آله و سلم – علاوة على أمور يمكن أنْ يطلق عليها الحِكمُ المستقاة من شرائع الإسلام .

أما المظاهر الحضارية المادية فقد أخذت نصيبها منه ، وهي كثيرة أيضا ، ولكنَّ كثرتها لا ترقى الى نسبة المظاهر الحضارية الفكرية ، فابن الجهم لم يترك شيئاً وقعت عليه عينهُ إلا ووصفه ابتداءً من عمارة القصور والحدائق والبرك التي كان يصطنعها الخلفاء العباسيون في حدائق قصورهم العامرة ، فضلاً عن مجالس الغناء والشراب واللهو ، وما يتصل بمعالم عِمران بغداد والمظاهر الطبيعية الأخرى .

وسنجعل البحث في ثلاثة أقسام فرعية تتناول المظاهر الحضارية في قصائد علي بن الجهم ، ويمكن إيجازها بما يأتي :

1. **المظاهر الدينية**
2. **المظاهر السياسية**
3. **المظاهر المادية**

منطلقين في هذه الأقسام من طبيعة الظاهرة الحضارية التي وجدناها في ديوانه بعد تتبعها وانتقاء نماذج الدراسة المعتمدة ، إذ إن منهج التتبع القائم على إحصاء الظاهرة يمثل منهجاً علمياً موضوعياً ، وتكون الأحكام الصادرة بالاستناد إليه أحكاماً اقرب الى الدقة والصحة ، ويمكن أن يوصف بالمنهج العلمي التجريبي ، إذ إنه يفيد من العلوم الأخرى ولاسيما علم الإحصاء[17] .

1- المظاهر الدينية :

قبل الولوج في الكشف عن المظاهر الحضارية الإسلامية في الجانب العقدي والتشريعي لابد من التنبيه الى مسألتين,**الأولى:**الترابط التلازمي بين الحضارة بدلالتها الاصطلاحية ومتعلقاتها وبين الإسلام

---

[13]() أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم بن مسعود القُرشي السَّامي ، ينتهي نسبه إلى سامةَ من لؤي بن غالب ، وكان سامةُ ترك مكة الى البحرين ، ومكث هناك ، وترك بعض بني سامة البحرين إلى خُراسانَ بعد فتح المسلمين لها ، ثم ترك الجهم أبو شاعرنا علي خراسان إلى بغداد بوصفها حاضرة الدنيا ومأوى العلماء ومهبط أفئدة الناس ، وأما أسرته فقد كانت من عِلية القوم ، إذ تقلَّد أبوه الجهم بريد اليمن أيام المأمون ، وكان أميراً للشرطة أيام الواثق في بغداد ، وكان أخوه الأكبر محمد عالماً وأديباً معروفاً في عصره ومقرباً من المأمون ، وكان عمه إدريس بن بدر أحد وجهاء عصره .
ينظر : الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني : 10/203 ، وتاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي : 7/240 ، ووفيات الأعيان ، ابن خلكان : 1/441 ، ومعجم الشعراء ، المرزباني : 286 ، وديوان علي الجهم ، مقدمة المحقق خليل مردم بك :3-5 ، والعصر العباسي الثاني ، د. شوقي ضيف :255 .

[14]() ينظر : تاريخ بغداد : 11/369 .

[15]() ينظر : ديوان علي بن الجهم ، مقدمة المحقق : 8 و9 .

[16]() ينظر : العصر العباسي الأول ،د. شوقي ضيف :48و49 .

[17]() ينظر : الأسلوب – دراسة لغوية إحصائية ، د. سعد مصلوح : 18و19 ، وتحليل النص الشعري – دراسة ما وراء نقدية في البنيوية العربية ، سعيد عبد الهادي المرهج : 374 .

الحنيف عقيدة وشريعة, والحقيقة الجلية الواضحة أنَّ الإسلام مثَّل في حياة أتباعه نقلة حضارية نوعية في الحياة الإنسانية كلها, من خلال مأحدثه في حياة الناس من تغيير نحو المُثُل العليا, ولذا فهو الحضارة الصريحة الصحيحة وإن لم يكن من نتاج البشر,لأن الناس إذا أخذوه والتزموه كما يرتضيه الله سبحانه لا كما تشتهيه أهواؤهم فسيصلون إلى الحياة المثلى في الجوانب كافة,وهو ماتنشده الحضارات ,وأمَّا **المسألة الثانية** فهي حيوية ومهمة وتتفرع من الأولى و تتعلق بعلاقة الإسلام بالمسألة الحضارية أو إنشاء الحضارات ، وكما قرره القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه ، فالإسلام شريعة وعقيدة دين الأنبياء والرسل من لدن آدم – عليه السلام – وحتى خاتم النبيين وسيد المرسلين مُحَمَّد ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ [18] ، وما يهم البحث في هذا المجال إشارات النصوص الإسلامية ولاسيما آيات القرآن الكريم الى دعوة الله سبحانه وتعالى البشر الى إتباع شريعته الحنيفية السمحاء لعمارة الأرض[19] ، وبناء الحياة الدنيا لكونها الطريق المؤدية الى الآخرة ولابد من سلوكها ، قال تعالى : **ﭽ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﭼ**[20] ، وهكذا فقد تحقق وعد الله سبحانه وتعالى – للمسلمين الأوائل في عهد النبوة والعصور اللاحقة فكانت دولة الإسلام تمتدُّ من حدود الصين شرقاً وإلى حدود فرنسا غرباً .

ومن سمات حضارة الإسلام: الشمولية في نظرتها للكون والإنسان ، فلم تُفرِّق بين ما هو مادي محسوس وبين ما هو روحي له علاقة بروح الإنسان وعبادته ، فالمسلم مسلم في مسجده وفي سوقه ، وفي نومه ويقظته ، وفي علاقاته الاجتماعية وشؤون حياته كلها ، لذلك قال تعالى : **ﭽ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﭼ**[21] .

ومن خلال نظرنا في ديوان علي بن الجهم وجدنا آثار هذا المنحى الحضاري متجلية في أشعاره من خلال تضمينها معاني إسلامية تتصل بالعقيدة والشريعة ، وفي مجالات القضاء والقدر ، والتوكل ، والصبر ، وأركان الإسلام ، والحِكمة الإسلامية ، وقصص القرآن الكريم .

-الإيمان بالقضاء والقدر:

يمثل الإيمان بالقضاء والقدر الركن الأساس من أركان الإيمان الذي يرتضيه الله سبحانه,قال تعالى: **ﭽ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﭼ**[22] , والإيمان بالقدر يستلزم عقيدة التوكل على الله وحده ويؤدي إليها, و قد وجدنا هذين الركنين متلازمين في شعر الشاعر, من ذلك قوله وهو في السجنِ محبوساً[23] :

توكَّلنا على ربِّ السّماءِ وسلّمْنا لأسبابِ القضاءِ

ووطّنا على غِيَرِ الليالي نفوساً سامحتْ بعد الإباءِ

وأفنيةُ الملوك مُحجّباتٌ وبابُ اللهِ مبذولُ الفِناءِ

فما أرجو سواهُ لكشفِ ضُري ولَمْ أفزَعْ إلى غيرِ الدُّعاءِ

وَلِمْ لا أشتكي بَثّي وحُزني إلى مَنْ لا يَصَمُّ عنِ النّداءِ

إن هذه الأبيات تمثل جزءاً من قصيدة قالها أيام حبسه في خلافة المتوكل[24] ، وله قصائد أخرى قالها في حبسه يمكن أنْ نطلق عليها شعر السجون ، والمهم من هذا كله أثر الحبس في مضامين شعره ، فهذه الأبيات فاضت بالمعاني الإسلامية في جانب العقيدة ولاسيما في ما يتعلق بالتوكل على الله سبحانه والإيمان بالقضاء والقدر ، وصِدق اللجوء إليه والاستعانة به وحده ,لأنه وحده سبحانه قادر على تحقيق ما

---

[18]() ينظر : المعجم المفهرس الألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي : 437 .

[19]() ينظر : التفسير الإسلامي للتاريخ ، د. عماد الدين خليل : 175و178 ,و الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم ، محمد مصطفى محمد : 424و425 .

[20]() سورة النور ، الآية 55 .

[21]() سورة الأنعام ، الآيتان 162و163.

[22]() سورة الحديد, الآيتان22 و23 .

[23]() ديوانه : 81 و82 .

[24]() ينظر : الأغاني : 11/3 و4 ، وديوانه : 10 و11 . مقدمة المُحقِّق .

يطلبه الداعون ، ومما لاشك فيه أن هذه الأمور تمثل أركان الإيمان الذي أوجبه الله على عباده ، ومناسبتها منسجمة مع الظروف التي عاشها الشاعر وهو مسجون ، فضلاً عن كونها جزءاً من ثقافة الشاعر بوصفه فرداً مسلماً ، وطالما تكررت في ديوانه ومثلت ظاهرة ، من ذلك قوله[25] :

أَنظرْ فَعنْ يُمْناك ويْحكَ عالمٌ يَحصي عليكَ وعنْ يسارِك كاتِبُ

وأرى البصِير بقلبهِ وبفهمِهِ يَعمى إذا حُمَّ القضاءُ الغالِبُ

بنى الشاعر مضمون هذين البيتين على معانٍ قرآنية اقتبسها من القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى : **چ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ژ ڑ چ**[26] وقوله سبحانه : **چ ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ چ**[27] ، وجاءت لغتها سهلة مباشرة وهي اقرب الى لغة النثر ، ومضمونها يقرر جزءاً مهماً من العقيدة التي يجب على المسلم الإيمان بها ، وتتمثل بعلم الله سبحانه بأفعال عباده ، وإحصائه لها ، وغلبة أمره القضائي القدري إذا أراده .

-الصبر:

يمثل الصبر خُلُقا إسلاميا وعلامة من علامات المؤمن التي تميزه من غيره,وقد مرت الإشارة قبل قليل إلى ماتعرض له الشاعر من حبس في إحدى محطات حياته, ولذلك فإن هذا الحدث أثَّر في تضمين الشاعر قصائده معاني الصبر, وبيان فضائله, من ذلك قوله يتحدث عن فضيلة الصبر ، إذ قال [28] :

مَنْ سبق السَّلوة بالصبرِ فازَ بفضلِ الحْمد والأجر

يا عجباً مِنْ هَلعٍ جازعٍ يُصبحُ بين الذّمِّ والوِزْرِ

مُصيبةُ الإنسان في دينِهِ أعظمُ من جائحة الدَّهرِ

إن الشاعر في هذا الموضع يوازن بين خصلتين تقعان على طرفي نقيض هما الصبر والجزع ، ومآل كلٍّ من الصابر والجازع ، ليصلَ الى نتيجة مُحتَّمة وهي كل مصيبة أمرها يهون إلا مصيبة الدين ، وهي مضامين إسلامية حضارية ربّى الإسلام عليها أتباعه ، ولطالما تكررت في مواضع كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف ، قال تعالى : **چ ثم ثى ثي جح جم حج حم خج چ**[29] .

وفي موضع آخر جعل الحديث عن خُلُق الصبر والظروف التي تستدعيه استهلالا لإحدى مدحياته في المتوكل,وفي هذه القصيدة أضحت مظاهر الإسلام العقدية والتشريعية ميزاناً يوزن به الممدوح ، وبقدر قيام الممدوح بتحقيقها في أقواله وأفعاله يُنْزِلُه الشاعر منزلة أعلى ، وقد انتهج شاعرنا هذا المنحى الأسلوبي في المديح مع المتوكل ، من ذلك قوله[30] :

وعاقبةِ الصبرِ الجميلِ جميلةٌ وأفضلُ أخلاق الرجالِ التفضُّلُ

ولا عارَ أن زالتْ عَن الحُرِّ نعْمةٌ ولكنَّ عاراً أن يزولَ التجمُّلُ

وما المالُ إلاّ حسرةٌ إن تركتَهُ وغُنمٌ إذا قدّمتهُ مُتعجَّلُ

ولله فينا عِلمُ غيبٍ وإنمَّا يُوفِّقُ منّا مَن يشاءُ ويخذُلُ

إن مضمون هذه الأبيات مستوحى من معانٍ إسلامية محضة تتعلق بموقف الإسلام من المال,ونظرته إلى حقيقته, والتصرف الأمثل الذي يجب أن يقوم به المسلم إن خوَّله الله تعالى وأنعم عليه به ، وتُمثِّل هذه المقدمة الحِكمية نوعاً من براعة الاستهلال أراد منها الشاعر تهيئة المتلقي لمعرفة مضمون قصيدته الآتي

---

[25] () ديوانه: 93 .
[26] () سورة ق ، الآية 21 .
[27] () سورة يوسف من الآية 21 .
[28] () ديوانه : 97 .
[29] () سورة الزمر ، من الآية 10 .
[30] () ديوانه : 163.

، وفيه دلالة على قدرة الشاعر و تمكنه من فنّه الشعري,إذ حوَّل في أبياته مجموعة من المضامين الإسلامية التي تمثل ثقافة المسلم أبياتا شعرية اتخذ منها مقدمة لمدحيته، ودلف بعد ذلك الشاعر إلى غرض قصيدته الأصلي وهو المدح ، فقال[31] :

وأَقْومُ خلْقِ اللهِ للهِ بالذي يُحِبُّ ويرضى جعفرُ المتوكِّلُ

فتى جمعت فيه المكارمُ شمْلَهَا فما فاته منها أخيرٌ وأوّلُ

أبى اللهُ إلاَّ أَنَّهُ خيرُ خلْقِهِ وأعْد لُهُمْ فيما يقولُ ويفْعلُ

عِنايتهُ بالدين تشهدُ أنّهُ برأي ابنِ عباسٍ يُقاسُ ويُعْدِلُ

له المِنّةُ العُظمَى على كُلِّ مُسْلِمٍ وطاعته فرضٌ من الله مُنْزَلُ

اعاد لنا الاسلام بعد دروسه وَقَامَ بِأمْرِ اللهِ والأمْرُ مُهْمَلُ

واثر اثار النبي محمد فقال بما قال الكتاب المنزل

وألّفَ بين المسلمينَ بِيُمنِهِ وأطْفأ نيرانا على الدين تشعل

فبعد استهلال قصيدته بمجموعة من الحكم جسَّدت المفهوم الإسلامي للملكية الحقيقية ، والغنى الحقيقي ، وعِلْمَ الله الأزلي بحقيقة الإنسان ومصيره الذي يستحقه ، رأيناه يعمد إلى سلوك المبالغة في إشادته بممدوحه, وهي مبالغة ممقوتة لم يكن للشاعر أن يسلكها, والدارسون طالما اعتادوا مبالغات الشعراء وتطرفهم في آرائهم, إلا أنَّنا نخالف الشاعر في أبياته هذه عندما جعل ممدوحه خير خلق الله تعالى, وأعدلهم, فأين مقام رسول الله-صلى الله عليه وعلى آله وسلم-؟ وأين مقام أولو العزم من الرسل-صلوات الله وسلامه عليهم- , وعلينا ونحن نعالج هذا النص أن لاننسى كونه نصا شعريا وفيه مبالغة, ويهمنا منه خصائص الفن الشعري, إذ ضمنَّه مجموعة من الأفعال التي يستحق فاعلها المدح والثناء إن قام بها ، وهي خصال كونه الإمام العادل ، وولي الأمر المقرب من الله قبل عباده ، ولذلك فقد صعد بالممدوح الى مرتبة سابقة تقارب منزلة حبرِ الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ولكن أين مظاهر الحضارة الإسلامية في ذلك كله ؟ إنّ المظاهر الحضارية الإسلامية متجلية في هذه القصيدة والتي قبلها خير تجلٍّ ، ولا تحتاج الى مزيد تأمل للوصول إليها ، فعقائد التوكل على الله وتوحيده ، والصبر على أوامره والانتهاء عن نواهيه ، والتزام المسلم حاكماً كان أم محكوماً بشرائع الإسلام أمور

[31]() ديوانه : 163 – 164 .

جهد الإسلام منذ مبدأ ظهوره على تربية أبنائه عليها ليعتنقوها ويعتقدوها ، حتى تستحيلَ شخصية المسلم كياناً واحداً غير متعدد الوجوه ، في بيته وفي بيئته ، ونظام حكمه ومسجده وفي شؤون دنياه العاجلة،وكُلُّها عقائد إسلامية وآداب حرص الإسلام على أن تتحقق في أتباعه, , وبذلك تبتعد الحضارة الإسلامية عن الازدواجية في معتقداتها وأفعالها ، وسواء مع أبنائها أم مع الآخرين الذين لا ينضوون تحتها كما نجد ونقرأ في الأمم الأخرى , ومسألة اتصاف الممدوح بها أو عدم اتصافه بها ليس موضوع البحث,إنما مناط عنايته كون تلك المظاهر استحالت مسائل يستحق من يلتزم بها المدح ومن جفاها فله الذمُّ والبعد, ونميل في رأينا إلى أن ذلك من مبالغات الشاعر,وليس من خصائص الدلالة الشعرية مطابقتها للواقع الذي تتحدث عنه,إذ إنَّ الشعراء أعطوا لأنفسهم الحرية في نظم ما يشاؤون,وفصلا عن هذا فإن الشعر كلما اقترب من الواقع في معانيه ودلالاته يفقد من سمات فنِّ الشعر بقدر ذلك الاقتراب حتى تصبح لغته أقرب إلى لغة النثر, والشعر في حقيقته لايُعبِّر إلا عن رأي ناظمه, ويصور وجهة نظره.

القصص القرآنِيُّ:

وتتنوع مظاهر الأثر الحضاري في الجانب الديني ، فضلاً عما سبق من مظاهر العقيدة الإسلامية ، فقد وجدنا تأثر الشعر بالقصص القرآني ، والقصص الإسلامي بصورة عامة ، من ذلك ذكره قصة خلق ادم – عليه السلام - [32] :

يا سائلي عن ابتداءِ الخلقِ ... مسألةَ القاصِدِ قَصْـد الحَقِّ

أخبرني قومٌ من الثقاتِ ... أولو عُلومٍ وألو هَيئآتِ

تفرَّغوا في طلبِ الآثارِ ... وعرَفوا مواردَ الأخبارِ

ودرسوا التوراة والإنجيلا ... وأحكموا التأويلَ والتنزيلا

أنَّ الذي يفعلُ ما يشاءُ ... ومَنْ له القدرةُ والبقاءُ

أنشأ خلق آدمٍ إنشاءَ ... وقَدَّ منه زوجَهُ حواءَ

مُبْتدِياً وذاك يوم الجمعهْ ... حتى إذا أكمل فيه الصَّنعَهْ

أسكنُهُ وزوجه الجِنانَا ... فكانَ مِنْ أمرهما ما كانا

غرّهما الشيطانُ فَاغترّا بهِ ... كما أبانَ اللهُ في كتابِهِ

غرّهما الشيطانُ فيما صَنعا ... فأهبِطا مِنْها إلى الأرضِ معا

فوقعَ الشيخُ أبونا آدمْ ... بِجَبلٍ بالهندِ يُدعى واسِمْ

لبِئسَ ما اعتاضَ منَ الجِنانِ ... والضّعْفُ من جِبلّة الإنسانِ

فَشَقِيا وورَّثا الشقاءَ ... نسْلَهُما والكَدَّ والعَنَاءَ

ولم يزلْ مستغفراً من ذنبهِ ... حتى تلقى كلماتٍ مِنْ ربّهِ

---

[32] () ديوانه : 157و159 .

فأمِنَ السخطةَ والعذابا	واللهُ توابٌ على منْ تابا
ثمّ تسلّى وأحبَّ النَّسْلا	فحملتْ حواءُ منه حمْلا
وولدتْ ابناً فسُمّي قاينا	وعاينا مِنْ أمرهِ ما عاينا
فشبَّ هابيلُ وشبَّ قاينُ	ولم يكُن بينهما تباين

هذه القصيدة جزء من أرجوزته الطويلة التي بلغت (329) بيتاً[33] تحدث فيها عن بدء الخليقة ، وضمّنها قصصاً قرآنية وأحداثاً تاريخية حكت ما حصل من أمور عظام قبل الإسلام وبعده حتى زمانه ، والقصيدة تندرج ضمن ما سمي بالشعر التعليمي ولذلك فهي خالية من أهم عنصر في الفن الشعري وهو الخيال والصورة الشعرية ، وما يهمُّ البحث المظاهر الحضارية فيها ، وقد تمثلت في اقتباس القصص القرآني والوقائع التاريخية لينظمها على شكل شعرٍ ، وقد ذهب محقق ديوان الشاعر إلى أن عليّاً حازَ فضيلة السبق في نظم تاريخ الخلفاء بخاصة والتاريخ بصفة عامة شعراً[34] ، ولذلك فان القصيدة قد مُلِئتْ بالمصطلحات الإسلامية التاريخية ، ومنها : ابتداء الخلق ، الثقات أولو عِلمٍ الآثار ، الأخبار ، التوراة ، الإنجيل ، يفعل ما يشاء ، الجنان ، غرّهما الشيطان ، الاستغفار ، وسلوك هذا المنحى من النظم الشعري في حقيقته مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية في العصر العباسي وبكل جوانبها ، وإذا كانت صفة الشمولية تمثل إحدى أهم صفات الإسلام شريعة وعقيدة ، فان حضارته بكل انجازاتها تمتعت بهذه الصفة أيضا فكانت شاملة في نهضتها كل مظاهر الحياة ، والشمولية التي صنع الإسلام بها المجتمع جعلت الإنتاج العلمي مشروعاً حضارياً تناول الوجود الإنساني كاملاً فكراً وفناً ومادة[35] ، وأسرع مظاهر النتاج الإنساني استجابة للتطور الحضاري هو الشعر ، لأنه يصدر عن نفسٍ مرهفة تتميز من النفوس البشرية الأخرى ، وقد يكون هذا التطور ايجابياً فيتفاعل بموجبه الشعر بالحضارة لتظهر عليه مظاهرها بالمضمون أو الشكل ، وقد يكون سلبياً ، فنرى الشاعر ينتهج مسلكا يرتدُّ فيه إلى الماضي ويعتصم بالقديم ويدورُ حوله ، وهو نوع من الأثر الحضاري ، ولكن النوع الأول هو السائد والأكثر .

هذه أبرز النماذج على المظاهر الحضارية في الجانب الديني لدى الشاعر ويمكن أن تندرج ضمن الشعر الإسلامي على وفق كونها تنطوي على مضامين إسلامية بحتة .

المظاهر السياسية :

من المعروف لدى دارسي الأدب العربي وناقديه أن عليَّ بن الجهم شاعرٌ ملتزمٌ سياسياً ، إذ أوقف جُلَّ شعره على مدح الخلفاء العباسيين ومناصرتهم ، ولاسيما المعتصم والواثق والمتوكل وأصبح من مرتادي مجالسهم وقاصديها[36] ، وقد نظم القصائد في مدحهم ، ولذلك فقد فاضَ شعره بالمصطلحات السياسية التي أوجدتها الحضارة الإسلامية ، وهي مصطلحات لم تعهدها أنظمة الحكم في غير الإسلام ، والشاعر ابن بيئته ووليد حضارة أمته ، ولغته الشعرية تؤكد هويته الحضارية ، على اعتبار أنَّ اللغة ليست " رابطة جنسية ولا عرقية ، وإنما هي رابطة ثقافية تؤكد روابط انتماء حضاري " [37] وهناك تأثير بين الأديب ومجتمعه في استخدام اللغة ، " فإذا ما توسّعنا قليلاً – وهو توسّعٌ معقولٌ ومشروع لما بين اللغة والأدب من علاقة – قلنا إنّ هناك تبادلاً في التأثير والتأثر بين الأديب ومجتمعه في إنتاجه الأدبي " [38] وتتحقق هذه السمة أكثر في شعر الشاعر الملتزم بمذهب سياسي معين ، كما وجدناه عند الشاعر ابن الجهم

---

[33] () اتبع الشاعر فيها أسلوب التفصيل في سرد الوقائع التاريخية ، ولذلك فقد استعان بهذه القصيدة كُتَّابُ التاريخ ، كما وجدنا ذلك عند المسعودي في كتابه : مروج الذهب : 1/15.

[34] () ينظر : هامش الصفحة 158 من الديوان .

[35] () ينظر : اللسانيات والدلالة ، د. منذر عياشي: 11 .

[36] () ينظر : العصر العباسي الثاني : 257و258 .

[37] () مباحث تأسيسية في اللسانيات ، د. عبد السلام المسدّي : 152 .

[38] () الأدب وفنونه ، د. عز الدين إسماعيل : 47 .

في مدائحه لقسم من خلفاء بني العبّاس ، وهي على كُلِّ حالٍ تمثل شعراً سياسياً يوحي بانتماء الشاعر السياسي .

ويمكن لنا على وجه العموم أنْ نُقَسِّم المظاهر السياسية التي رصدها البحث على نوعين:المصطلحات الإدارية السياسية,وسلوك أولي الأمر, وسنوضح ذلك في الفقرتين الآتيتين:

-المصطلحات السياسية الإدارية:

المتصفح لأشعار الشاعر في هذا المجال يجدها ملأى بالمصطلحات السياسية الحُكمية ، منها : الإمام ، أمير المؤمنين ، خليفة الله ، الوزير، وغيرها .

من ذلك قوله في مدح المتوكل[39] :

خير مَنْ أسندت إليهِ الأمور ... وأجلّته أعينٌ وصُدورُ

مَلِكٌ باسِطُ اليدينِ الى الخيـ ... ـرِ صفوحٌ عن الذّنوبِ غفُورُ

أمِنَ النّاسُ واستفاضَ به العَدْ ... لُ فلا خائفٌ ولا مقهورُ

وقرأتَ الأخبار فيك إلى الوا ... ثق يسعى بها المُلِيمُ الكفورُ

فانتقمْ يا خليفةَ اللهِ مِمَّنْ ... لمْ يزلْ قلْبُهُ عليك يفُورُ

هذه الأبيات جزءٌ من قصيدة مدح بها عليُّ بن الجهم المتوكل ، وقد بناها على مضامين إسلامية سياسية حققها – بحسب رأي الشاعر – ممدوحُه ، الذي " أسْنِدَ " إليه أمر المسلمين ، فاستفاض به العدل بين الناس ، وهو تشكيل استعاري مقصودٌ ليُجَسِّد الشاعر بموجبه المعنى المعتمل في نفسه تجاه الممدوح ، وليشير من خلاله إلى مدى عدله وعمق اتصافه به حتى لم يبق في دولته خائف ولا مقهور ، وهي مبالغة طالما عهدناها عند الشعراء ، ولذلك فقد ختم قصيدته بما استهلها به ، اذ وصف الممدوح بكونه " خليفة الله " وأراد من خلاله أن يعلل ما قرّره في مطلع قصيدته من استفاضة العدل ، وهي لا تصدر إلا من شخصٍ ليس كبقية الحكام ، بل هو في رأي الشاعر خليفة لله[40] .

وقد كرر الشاعر هذا المصطلح " خليفة الله " الى جانب مصطلحات أخرى ، في مواضع أخرى من الديوان ، منها قوله في مدح المعتصم[41] :

إليك خليفة الله استقلّتْ ... قلائصُ مثلُ مُجْفلةِ النَّعامِ

فلمّا أنْ تجلّى قال صحْبي ... أضوءُ الصبحِ أم وجه الإمامِ

وأنت خليفة الله المعلّى ... على الخلفاء بالنِّعمِ العِظَامِ

والمتأمّل في هذه القصيدة وأمثالها يجد الشاعر يكرر المعاني نفسها المتمثلة بنصرة الإسلام ، وإشاعة العدل ، والقدرة على هزيمة أعداء الإسلام ، وقهر الخصوم ، ولذا رأيناه يكرر مصطلح " خليفة الله " في أشعاره .

- سلوك أولي الأمر:

من المعروف أن الإسلام منذ اللحظة الأولى لنزوله عمل على إقامة دولته الخاصة المتفردة القائمة على وفق نظام ربانِيٍّ يستقي قواعد حكمه من القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم- محمد صلى الله عليه

---

[39] () ديوانه : 35-37 .

[40] () من المهم ونحن نتعامل مع اللغة بصفة عامة ولغة الشعر بصفة خاصة الإشارة إلى أنَّ مصطلح " خليفة الله " لم يرد في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف ، بل الذي ورد لفظة " خليفة " نكرة مطلقة ، كما قال تعالى : ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ **البقرة: ٣٠**، وقد بينها العلماء في مواضعها ، والمراد بها : أن يخلف بنو آدم بعضهم بعضا ، وليس المراد بها أن يخلفوا الله سبحانه في الأرض . ينظر : التفسير الكبير,الرازي:3/ 383.

[41] () ديوانه : 7-9 .

وعلى آله وسلم- وعلى مبدأ الشورى الإسلامية,وتحرص هذه الدولة على إشاعة العدل ومحاربة الظلم, وقد وجد البحث أصداء تلك المظاهر مبثوثة في قسم من أشعار الشاعر سواء في فنِّ المديح مع من يُعجبُ بهم الشاعر أو أهاجيه لخصومه ومن لايتفق معهم.

فالحاكم الممدوح لدى ابن الجهم اخذ منحىً خاصاً ، فهو إلى جانب عدلهِ وحزمِهِ وشجاعته قد اختاره الله – بحسب رأي الشاعر – لمنصب الخليفة،واتبع مبدأ الشورى عندما تولى الخلافة, وكأنه أراد من هذا المسلك المضموني للمدح أن يسوّغ سبب تلقيبه للخليفة العباسي بكونه خليفة الله ، من ذلك قوله [42] :

فأمّر اللهُ إمَامَ الهُدى ... والله منْ ينصُرُهُ يُنْصَرُ

وفوّضَ الأمر الى ربّهِ ... مستنصراً إذْ ليس مستنصَرُ

ونبذَ الشُورى الى أهلها ... لم يُثنهِ خِشيةُ ما حذّرُوا

إنّ الممدوح لمّا كان مختارا من الله–تعالى– بحسب ادعاء الشاعر فسيكون إماماً للهدى ، ومن لوازم الهدى إتباع مبدأ ((الشورى)) في الحكم،فممدوحه منذ لحظة توليه الحكم نبذ الشورى إلى أهلها, وهو منهج إسلامي سارت عليه دولة الإسلام في عهد النبوة والراشدين من بعْدُ ، قال تعالى **چ ڳ ڳ ڳ ڳ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ چ**[43] .

ولم يكتف ابن الجهم بتضمين أشعاره مظاهر الحضارة الإسلامية في الجانب السياسي في موضوعات المديح فقط ، بل وجدناه يأخذ مضامينها في موضوعات الهجاء ،اذ اخذ على من هجاه ابتعاده عن ما يوجبه عليه التشريع الإسلامي من سلوك منهج الحاكم العادل المتبع شرائع الله تعالى المنفذ أحكامه التي تجلب الأمن والطمأنينة لأفراد المجتمع المسلم ، من ذلك هجاؤه محمد بن عبد الملك الزيات الوزير[44] :

لعائن الله متابعاتِ ... مصْبِّحاتٍ ومُهَجِّراتِ

على ابن عبد الملك الزيات ... عرَّضَ شمْلَ الملك للشَتاتِ

وأنفذَ الأحكام جائراتِ ... على كتابِ اللهِ زارياتِ

وعن عقولِ النّاسِ خارجاتِ ... يرمي الدواوينَ بتوقيعاتِ

مُعقّداتٍ كَرُقى الحيَّاتِ ... سبحانَ من جلَّ عن الصفاتِ

بعْدَ ركوبِ الطّوفِ في الفَراتِ ... وبعد بيعِ الزيت بالحبَّاتِ

صرْتَ وزيراً شامخ الثباتِ ... هارونُ يابْنَ سيِّدِ السَّاداتِ

أما ترى الأُمُورَ مهملاتِ ... تشكو إليكَ عدمَ الكُفاةِ

ويبدو أن المهجو في هذه الأبيات لم يكن على حالٍ طيبة مع الشاعر ، لأنه حاد في أحكامه عن كتابِ الله ، وغدت توقيعاته حاملةً الشُؤم والإجحاف بدلاً من خدمة الناسِ وإمضاء مصالحهم ، لذلك فهي كرُقى الحياتِ[45] ، ويبدو أن الشاعر- ساخرا -شبه توقيعات ابن الزيات بتعويذات الكهان والسحرة التي يكتبونها

---

[42] () ديوانه : 73و74 .

[43] () سورة الشورى ، الآية 38.

[44] () ديوانه : 118-119 .

[45] () رُقى الحياة ، جمع مفردة : رُقْيةٌ ، وهي العُوذة التي يُرقى بها صاحبُ الآفة ، كالحمَّى والصرع وغيرهما ، وفي الجاهلية كانت هناك رقى الكهان وفي الغالب لم تكن مفهومة على شكل طلاسم . ينظر : لسان العرب ، ابن منظور : 5/293 .

بلغة غير مفهومة ، وهي بدل أن تنفع صاحبها الذي تُرقى عليه ، تجلب له النحس والشؤم عقوبة,قال تعالى:**چڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ چ**[46] .

وهكذا تجلت المظاهر الحضارية في الجوانب السياسية في شعر ابن الجهم في الحكم والخلافة ,وقد ظهر من خلالها الشاعر ملتزما بنظام سياسي معينٍ آزره في شعره ، وحفل به ، فكان هواه السياسي عباسياً ، فضلا عن تضمين شعره مصطلحات سياسية حضارية إسلامية ، ابتكرتها الشريعة الإسلامية ، وهي خاصة لم تعهدها أنظمة الحكم لدى الأمم الأخرى غير امة الإسلام ، ومنها أنَّه لم يكن بمنأى عن أحداث عصره السياسية الكبرى التي أثرت في المجتمع أيام الدولة العباسية ، بل وفي التاريخ بصورة عامة وهو وإن لم يكن متفرداً في هذا الجانب عن معظم شعراء عصره إلا أنَّ له فرادة في الجانب المضموني الحضاري .

المظاهر المادية :

تمثل المظاهر الحضارية المادية النتيجة التي ستؤول إليها حركة التحضر الإنساني التي يبدأ أوارها بالاتقاد في الفكر وخبايا العقول ، ومن المعروف أنَّ العصر العباسي شهد نهضة شاملة في مظاهر الحياة كلها ، وقد تجلى ذلك في الأدب العربي الذي يعود الى تلك الحقبة الذهبية من تاريخ امتنا المجيد ، وهذا لا يعني إغفالنا بعض الزوايا التي مثلت كبوةً في حركة تاريخ الأمة الحضاري ، وما يهم البحث مظاهر الحضارة المادية التي تركت آثارها في شعر علي بن الجهم ، وقد تمثلت آثارها في شعره الوصفي إذ كان" فيه براعة ودقة ، وهو في هذا الباب مجيد محسن ، يصور الموصوف كأنّك تراه بما فيه من جليلٍ ولطيفٍ ، وربما كان هذا الباب من أقوى مظاهر شاعريته ، وأدلها على قوة ملاحظته ، ورقة شعوره وحسن بيانه ، وقوة إبداعه ، وقد بقي لنا من وصفه قليل من القصائد والمقطعات كوصف القصر ، والفوارّة ، والبركة ، والمركب والسحابة والصيد ، وبيت القيان والليل ، والورد والشطرنج ، ومجلس من مجال اللهو " [47]وجُلُّ وصفياته تدخل ضمن المظاهر الحضارية المادية التي شاعت في العمران البغدادي بخاصة والعباسي بصورة عامة .

-القصر الهاروني:

يمثل الرُّقيُّ العمراني الجانب المحسوس المرئيَّ من الحضارات,ويُعدُّ الشاهد الناطق على نهضة الأمم في شتَّى مجالات الحياة, وفي العصر العباسي مجموعة من الشواهد العِمرانيَّة الشاخصة, منها القصر الهارونيُّ, وقد ورد ذِكرُه في شعر ابن الجهم, اذ قال فيه:[48] :

ما زلتُ أسمع أنَّ الملو ... ك تبني على قَدْر أخطارِها

وأعلمُ أنّ عقولَ الرّجا ... لِ يُقضى عليها بآثارِها

فللرُّومِ ما شاده الأولون ... وللفُرسِ مأثورُ أحرارِها

وهذه الأبيات جعلها تمهيداً لما سيورد من وصفه ، وتمثل نوعاً من الحكمة ، وعلى قدر العمران الذي يُشادُ في عصر الملوك والحكام يكون حكم التاريخ عليهم ، كما تحدث النّاس في زمان الشاعر عن مآثر الرُّوم والفرس ، ولكنَّ ما شيده الممدوح فاق تلك المآثر ، ولذلك قال :

فلمَّا رأينا بناءَ الإمام ... رأينا الخلافةَ في دارِها

وكُنّا نَعُدُّ لها نخوةً ... فطأمنتَ نخوة جبَّارِها

وأنشأت تحتجُّ للمسلمينَ ... على مُلحديها وكُفّارِها

بدائعُ لم ترها فارسٌ ... ولا الرُّوم في طولِ أعمارِها

---

[46]() سورة الجنّ,الآية6.

[47]() ديوانه ، مقدمة المحقق : 35و36 .

[48]() ديوانه : 28-31 .

إن القصر الموصوف مثل هيبة الخلافة الإسلامية في العصر العباسي ، اذ عُدَّ من مآثر المسلمين الشاخصة أمام الأمم الأخرى من فارس والرُّوم ، ومناط افتخارهم بوصفه شاهداً حضارياً مادياً ، ولذلك دلف الشاعر في التفصيل في ذكر أوصاف القصر :

صحونٌ تُسافِرُ فيها العيونُ وتحْسِرُ عن بُعد أقطارها

وقُبةُ ملكٍ كأنَّ النَّجو مَ تُفضي إليها بأسرارِها

تخِرُّ الوفودُ لها سُجّداً إذا ما تجلّتْ لأبصارِها

إذا لمعتْ تستبينُ العيو نُ فيها منابتَ أشفارِها

وإنْ أوقدِتْ نارُها بالعِرا قِ ضاءَ الحجازَ سنا نارِها

لها شُرفاتٌ كأنَّ الربيعَ كساها الرياضَ بأنوارِها

نظمْنَ الفُسيفسَ نْظمَ الحُليِّ لعُونِ النِّساء وأبكارها

فهُنَّ كمصطحباتٍ برزْنَ بِفصْحِ النَّصارى وإفطارِها

فمنهُنَّ عا قصةٌ شعرَها ومُصلحةٌ عقْدَ زُنّارها

إذا الريحُ هبَّتْ لها أسمعتْ غِناءَ القيان بأوتارِها

وفوَّارةٍ ثأرها في السماء فليست تُقصِّرُ عن ثارها

تردُّ على المُزنِ ما أنزلتْ على الأرض من صوبِ مدرارها

لو انَّ سليمانَ أدّت له شياطينُهُ بعض أخبارها

لأيقنَ أنّ بني هاشمٍ يُفضِّلها عُظْمُ أخطارها

فلا زالتِ الأرضُ معمورةً بِعمْركَ يا خيرَ عُمَّارها

ومما يلحظ في هذه اللوحة المعمارية التي رسم حدودها ، وصور ملامحها الشاعر عنصر التفصيل حتى لكأنَّ القارئ أو المتلقي شاهده رأي العين ، ومما أخذ لُبَّ الشاعر في الصميم باحات القصر ، وقُبته ، والفوارة أوالنافورة ، التي تقذف بالمياه المنسابة نحو الأعلى ، واستثمر الصورة البيانية لنقل ما عاينه بصرُه الثاقب ، وبنيت تلك الصورة من عنصرين رئيسين هما : الاستعارة في قوله : تسافِرُ فيها العُيون ، وقوله : ثأرها في السماء لتصوير مدى ارتفاع مائها المتدفق في السماء واستمراره ، وأمّا وصفه القبة فقد لجأ الى استثمار تقنية التصوير المركب من التشبيه والاستعارة :

وقُبةُ مُلْكٍ كأنّ النَّجو مَ تُفضي إليها بأسرَارِها

فالقُبة مرتفعة ، ولارتفاعها وعظمها تصور الشاعر أنَّ هناك مناجاةً بين النجوم وبينها ، والحقيقة أنَّ هذه الصور تفيض بالحياة ، لأنّ الشاعر وظّف الاستعارة المكنية التي انتزع خصائص المشبه به من عناصر حيّة ذوي مشاعر ، ومنها الإنسان ، وإذا كان ابن الجهم قد احترف في فن الوصف فإنَّ الذي بوأه هذه الدرجة قدرته على توظيف عناصر التصوير ووضعها في السياق الذي تستطيع من خلالها كسب

دلالتها بجاراتها السابقات عليها واللاحقات بها ، وأنْ تمتزج معهُنَّ امتزاجاً يمنحها إشعاعات وإيحاءات وإضافات جديدة[49] .

-البِركة:

ويبدو أنَّ القصر الهاروني الذي وصفه في القصيدة السابقة قد اخذ مأخذه من إعجاب الشاعر ، ولذلك فقد أوقف له قصائد ليست قليلة في ديوانه ، منها قوله في وصف البِركة المحتفرة أو الصناعية في القصر[50] .

أنشأتَها بِركةً مباركةً ... فبارِكَ اللهُ في عواقِبِها

حُفّتْ بما تشتهي النفوسُ لها ... وحارت الناسُ في عجائبِها

لم يخلقِ الله مثلها وطناً ... في مشرق الأرضِ أو مغاربِها

كأنَّها والرِّياضُ مُحْدقةٌ ... بها عروسٌ تُجْلى لخَاطِبِها

من أي أقطارها أتيْتَ رأيْـ ... تَ الحُسنَ حيران في جوانبها

للموج فيها تلاطم عَجبٌ ... والجَزْرُ والمدُّ في مشاربها

قدّرهَا الله للإمام وما ... قدَّر فيها عيباً لِعائبِها

أهدتْ إليها الدُّنيا محاَسِنَها ... وأكْمَلَ الله حُسنَ صاحبها

وفي هذه الصورة أيضا تتجلّى براعة الشاعر في قدرته على التوصيف المصوِّر والمُجسِّد لما وقعت عليه عينه ، فهذه البِركة (البحيرة الصناعية) بلغت من الجمالِ والحُسن مبلغاً بعيداً لم يجد الشاعر صورة تُشبهها غير العروس التي جُهزت ليلة زفافها ، بل إنّ الحُسْنَ عبر تقنية الاستعارة المكنية أضحى حيران ، ولاشك أن في هذا مبالغة لطالما تعاهدها الشعراء في أشعارهم .

-الزوارق:

ومن المظاهر الحضارية المادية ذكر المراكب أو الزوارق التي كان استعمالها شائعاً في بغداد أيام الخلافة العباسية ، من ذلك قوله في وصف أحد المراكب[51] :

عَجِبتُ كُلَّ العَجبِ ... من سير هذا المركبِ

وماله عينٌ ولا ... روحٌ جرتْ في عَصَبِ

لِجامُهُ من خلفِهِ ... مُركَّبُ في الذّنبِ

مُزَيّنٌ بالودع في الصد بالـــــــــــوذْعِ ... ذُرِ ورَمْعِ العَذَبِ
فـــــــــــــي الصْـــــــــــــ

ومالهُ من ثَفرٍ ... ومالَهُ مِنْ لبَبِ

سياطُهُ في سَيرِه ... دفعُ مَرَادِي الخَشبِ

إذا استحثّتهُ مجا ... ذيفٌ لهُ في الطّلبِ

---

[49] () ينظر : التصوير البياني في شعر المتنبي ، د. الوصيف هلال الوصيف إبراهيم : 54 .

[50] () ديوانه : 32 .

[51] () ديوانه : 114و115 .

أعْنقَ فَوقَ الماءِ في هَمْلجةٍ أو خَبَبِ

للماء في حيزُومِهِ مِنْ صوتِ مَوجٍ صَخِبِ

حشرجَةٌ كالرَّعْدِ في عارِضِ غيثٍ لَجِبِ

ينسابُ كالحيةِ في عطفِ ذُنَابى العقربِ

لهُ شراعٌ مُشرقٌ كالبندِ يومَ الشَّغب

منتصبٌ تجذُبُهُ الـ أرْسانُ جذْبَ الطُنُبِ

للريحِ فيهِ حنّةٌ من جرْيِهِ المُنْجَذِبِ

إن المركب الذي صوّره الشاعر في أبياته بدا ليس كبقية المراكب ، فقد استطاع عبر تقنية التصوير وباستعمال براعته في الوصف أن يرسم الموصوف وقد سرت في جنباته روح استحال كائناً ذا مشاعر مع كونه :

ومالهُ عينُ ولا رُوحٌ جرتْ في عَصَبِ

بل إن الشاعر على الرغم من حقيقة الموصوف الواقعية ، فقد أظهره بمظهرِ ذي الحياة أيا كان مسمّاه لأنه :

إذا استحثتهُ مجا ذيفٌ لهُ في الطلبِ

أعنق فوق الماء في هَمْلجةٍ أو خَبَبِ

للماء في حيزومِهِ من صوت موجٍ صَخِبِ

حشرجةٌ كالرعدِ في عارضِ غيثِ لَجِبِ

فالهملجةُ والخببُ مشيتان للفرسِ ونحوه من البغال ،وجعلهما الشاعر وصفاً لسير ذلك المركب ليشكل بذلك نوعاً من الصورة الاستعارية المكنية ، لتعانق الصورة الاستعارية للماء الذي له حشرجة ، وهي في أصلها وصف لنوع من الصوت يخرج من صدر الإنسان ، وهذا مما قصده الشاعر قصداً في بنائه للصورة الكلية للمركب الموصوف ، وليعمق من خلالها مغزى دلالياً رامه وهو كون المركب متقنَ الصنعة ومصمماً على وفق هيأة بلغت أعلى ما وصلت اليه تقنية صناعة المراكب في ذلك العصر ، وليبرز المستوى الحضاري من الرقي الذي بلغه المجتمع .

ولو ذهبنا نستقصي مظاهر الحضارة المادية في العمران لطال بنا البحث ، ولكن حسبُنا ما اشرنا اليه من نماذج جزئية تعطي تصوراً عن تلك الحضارة ، وإلا فللشاعر قصائد في وصف الصيد ، وبيت القيان ، والليل ، والورد ، والشطرنج ، ومجالس اللهو[52] .

ومما لحظناه في هذا المجال أنَّ المستوى الفنيِّ للقصائد التي تجلّى فيها اثر الحضارة من حيث المظاهر المادية العمرانية فاق مستوى القصائد في الأثرين الديني والسياسي ، إذ استثمر الشاعر في القصائد ذوات المظاهر الحضارية المادية الخيال الشعري من خلال توظيف أسلوبية التصوير بواسطة تقنية التشبيه والاستعارة والكناية ، وحتى في مجال اللغة الشعرية ، فقد وجدنا المستوى اللغوي للأخيرة أميل الى استعمال الأسلوب الشعري المعتمد على لغة شعرية رصينة ، بخلاف القصائد في المجالين الديني

[52]() ينظر : ديوانه : 52 ، 120 ، 168 ، 111 ، 152 ، 179 .

والسياسي ، فقد جاءت لغتها في بعض الأحيان خالية من مقومات اللغة الشعرية ، وتميل الى التقريرية والمباشرة في التعبير .

ولعلنا نستطيع أنْ نلتمس عذراً مناسباً للشاعر في سلوكه هذا المسلك من التعبير ، إذ إن الحديث عن المضامين الدينية والسياسية قد لا يتيح للشاعر الحرية في توظيف الطاقات المكتنزة في اللغة ، لأن ذلك يوجب عليه الوضوح في عباراته ، وابتعاده عن الاحتمالية ، ولاسيما في الحديث عن المضامين الدينية ، أما التعبير عن مظاهر الحياة الأخرى كالعمران والطبيعة فإن للشاعر الحرية الكاملة في توظيف ما وفرّت له اللغة من طاقات تعبيرية وتصويرية ، وهذا ما دفع بالشاعر عليِّ بن الجهم إلى سلوك هذا المنحى التعبيري .

الدراسة الفنية:

إن الأدب بصفة عامة نشاط إنساني راقٍ يصدرُ عن أشخاص ليسوا كبقية أفراد مجتمعهم ، وثمّة علاقة تأثرية بينه وبين المستوى الحضاري الذي يبلغه المجتمع الذي ينتمي إليه ، وليس من المعقولِ ان نجد أمّة ذات نتاج أدبي راقٍ ومتخلفة عن الركب الحضاري أو خاملة حضاريا ، والأدب فن لغوي ، ويخضع لقوانين الفنون في علاقتها مع الحضارة ، ومن الخطأ أن نفصلهُ عن الحياة التي ولد فيها فصلاً مطلقاً[53] ، ولذلك ستترك فيه الحضارة أثرها ومن حيث معظم جوانبه .

وإذا تأمّلنا المظاهر الحضارية في شعر علي بن الجهم من حيث خصائصه الفنية فنستطيع تشخيص ذلك في جوانب عدة ، يمكن إيجازها بما يأتي :

1- المضمون
2- اللغة
3- الإيقاع

ونحاول تجلية ذلك في الصفحات اللاحقة لكي يستكمل البحث جوانبه .

أولاً : المضمون

أما هذا الجانب فقد بدت المظاهر الحضارية جليةً من خلال الموضوعات التي طرقها الشاعر ، وهي وإنْ كانت من حيث الوصف العام تدخل ضمن الأغراض الشعرية العامة كالمديح والهجاء والوصف ، فإن الشاعر استطاع أن يضمّنها دلالات يمكن عدُّها من انجازات الحضارة الإسلامية في العصر العباسي ، ولاسيما فيما يتعلق بشؤون الخلافة من ألقاب ومنجزات الخلفاء وأساليبهم في الحكم ، وإقامة العدل ، ومحاربة الظلم ، وصفات الخليفة ومدى التزامه بشرائع الإسلام في نفسه ، وفي رعيته ، فضلاً عن مفاهيم التوحيد والقضاء والقدر ، واخذ الهجاء طابعاً خاصاً تمثل بوصم المهجو بالجَوْر والابتعاد عن تحقيق شرائع الإسلام وإقامتها ، وهكذا كان الوصف ، فقد برع الشاعر في وصف منجزات الحضارة المادية المتعلقة بتصاميم القصور والحدائق ومظاهر العمران الأخرى ، وقد اشرنا الى نماذج من ذلك في المباحث السابقة ، ولا بأس من ذكر أمثلة أخرى لاكتمال الفائدة في إعطاء الصورة .

فمن ذلك وصفهُ رحلة صيد مع طاهر بن عبد الله بن طاهر[54] :

وطئنا رياضَ الزعفرانِ وأمسكتْ ... علينا البُزاة حُمْرَ الدرارجِ

ولم تحمِها الأدغالُ منّا وإنّما ... أبحنا حِماها بالكلابِ النَّوابحِ

بمستروحاتٍ سابحاتٍ بطونُها ... على الأرضِ أمثالَ السِّهامِ الزوالجِ

ومستَشرفاتٍ بالهوادي كأنّها ... وما عققتْ منها رؤوس الصوالجِ

ومِنْ دالعاتٍ ألسُناً فكأنّها ... لحىً من رجالٍ خاضعينَ كواسجِ

فَلَيْنا بها الغِيطانَ فلْياً كأنّها ... أناملُ إحدى الغانياتِ الحوالجِ

---

[53]() ينظر : مشكلة الفنّ ، د. زكريا إبراهيم : 171 .
[54]() ديوانه : 120و121 .

فَقُلْ لِبُغاةِ الصيدِ هلْ من مفاخرٍ بِصيدٍ وهل مِنْ واصفٍ أو مُخارجِ

قرَنّا بُزاةً بالصقورِ وحوّمَتْ شواهينُنا من بعْد صيد الزَّمامِجِ

استعان الشاعر بعبقريته في وصف رحلة صيد بالطيور الجارحة وهي البُزاة جمع باز ، والشاهين ، وكأن المتلقي يشاهد هذه الرحلة معاينةً ، إذِ استطاع الشاعر بناء الصورة الكلية من صور جزئية مبتدئاً من تصوير الأحراش والأدغال الملتفة الكثيفة ، وحركة كلاب الصيد وكيفية تربصها ومراقبتها الفرائس ، وحركتها في الأدغال ، وحوم الطيور الصائدة ، مستثمراً آليات التشبيه ، وكلها مضامين مستوحاة من طبيعة الحياة في العصر العباسي .

ومن صوره المتميزة في ديوانه وصفه السحابة ، وحركتها ، وقد جعلها مقدمة لذكر مقتل الخليفة العباسي المتوكل ، ولعلَّ ذلك من مظاهر التجديد عنده في الشعر العباسي بعامّة ، اذ قال[55] :

وساريةٍ ترتادُ أرضاً تجودُها شغلتُ بها عيناً قليلاً هموذُها

أتتنا بها ريح الصَّبا وكأنّها فتاةٌ تزجيها عجوزٌ تقودُها

تميسُ بها ميساً فلا هي إنْ ونتْ نهتها ولا إنْ أسرعتْ تستعيدُها

إذا فارقتْها ساعةً ولهتْ بها كأمِّ وليدٍ غابَ عنها وليدُها

فلمّا أضرتْ بالعيونِ بُروقُها وكادت تُصِمُّ السامعين رُعودُها

وكادت تميسُ الأرض إمّا تلهفاً وإمّا حِذاراً أن يضيعَ مريدُها

فلمّا رأتْ حُرَّ الثرى مُتعقِّداً بما زلَّ منها والرُّبى تستزيدُها

وأنّ أقاليمَ العراق فقيرةٌ إليها أقامتْ بالعراقِ تجودُها

فما برحت بغدادُ حتى تفجّرتْ بأوديةٍ ما تستفيقُ مُدودُها

وحتى رأينا الطيْرَ في جنباتِها تكادُ أكُفُّ الغانياتِ تَصِيدُها

وحتى اكتست من كُلِّ نور كأنَّها عروسٌ زهاها وشيُها وبرودُها

دعتها الى حلِّ النطاقِ فأرعشتْ إليها وجرْت سِمْطُها وفريدُها

ودجلةٌ كالدرعِ المضاعفِ نسْجُها لها حِلقٌ يبدو ويخفى حديدُها

فلمّا قضتْ حقَّ العراقِ وأهلِهِ أتاها من الريحِ الشمّالِ بريدُها

حاول الشاعر في وصفه السحابة ان يضفي عليها نوعاً من الحياة ، استحالت بموجبها كائناً مريداً فاعلاً ، وهو كدأبه في أشعاره استعان بتقنية التشبيه من خلال اعتماد أكثر من مُشَبَّهٍ به ، ولعلّه اتخذ من هذه السحابة رمزاً للخليفة العباسي المقتول الذي رثاه وأزرى بمن قام بجريمة القتل ، فوجوده خليفة للمسلمين كان بمثابة السحابة الموصوفة .

[55]() ديوانه: 56-64 .

ولا أريد ان اكرر النماذج التي مرّ ذكرها في الصفحات السابقة التي أوحت بمظاهر الحضارة في الجانب المضموني للشعر ، فقد رأينا المضامين الحضارية متجلية فيها .

ثانياً : اللغة

اما المظاهر الحضارية في لغة الشاعر فتستطيع أنْ نضعها في قسمين ، **الأول :** يتصل بالمفردات والتراكيب ، فقد كثر في شعره مفردات وتراكيب حضارية إسلامية لها علاقة بالجوانب الإسلامية وما يتصل بها من قضايا العقيدة والتشريع والعبادات ، **الثاني :** في نوع الأساليب التي طبعت لغته الشعرية من حيث المظاهر الحضارية فيها ، اذ مالت الى السهولة والوضوح حتى اقتربت من لغة النثر في بعض الأحيان ، لكنه تأنق في مواضع كثيرة من ديوانه في تركيب صور شعرية جميلة فاضت بالحركة والحياة ، مستثمراً ما وفرته له اللغة الشعرية من تقنيات التصوير بتوظيف فنون البيان وعناصر البلاغة .

وسنكتفي بضرب أمثلة تعطي صورة واضحة عما قلناه ، من ذلك قوله في المتوكل مادحاً[56] :

خيرُ مَنْ أسندتْ إليه الأمور ... وأجلّتْهُ أعينٌ وصدورُ

ملِكٌ باسطُ اليدينِ إلى الخيـ ... ـر صفوحٌ عن الذنوبِ غفورُ

أمِن الناسُ واستفاضَ به العد ... لُ فلا خائفٌ ولا مقهورُ

يا أبا الفضلِ يا أبن عمِّ رسول اللّـ ... ـهِ أنت المؤمَّلُ المحذورُ

والمكنى بكُنيتهِ الوارثِ العبَّا ... سِ والمُكتنِي به المنصورُ

قدّرَ اللهُ أن يُعِزَّ بك الإسْـ ... ـلامَ والأمر كُلُهُ مقْدورُ

لم يزلْ فيكَ للذي دبّرَ الأشـ ... ـياءَ مُذْ كنت ناشئاً تدبيرُ

كانَ يبلوكَ بالرجاءِ وبالخو ... فِ اختباراً وهو اللطيف الخبيرُ

ثُمَّ ولاكَ ناصراً لكَ مولا ... كَ فنِعْمَ المولى ونِعْمَ النَصِيرُ

قدْ ضَرَبْتَ الأمور ظهراً لبطنٍ ... وتصفّحتها وأنت أميرُ

فرأيت العدوَّ يبكي دِماءً ... ورأيت العدوّ وهو يَزيرُ

فانتقمْ يا خليفةَ الله ممّنْ ... لم يزلْ قلْبُهُ عليك يفورُ

إن هذه القصيدة قد تضمّنت مجموعة من المفردات الإسلامية المتعلقة بالعقيدة ((رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – قدّر الله ، الرجاء والخوف ، نِعْم المولى ونِعْمَ النصيرُ)) فضلاً عن الألفاظ التي يمكن وصفها بالسياسية المتصلة بألقاب الخلفاء،وذلك كُلُّه يمثل نوعا من تجليات الحضارة,ومظهرا من مظاهِرها,على اعتبار أنَّها أوجدته, وأما لغتها فهي سهلة تكاد تخلو من عنصر التصوير ، ولذلك فقد غلب عليها طابع التقرير المباشر .

ومقابل ذلك نجد الشاعر قد نظم قصائد اتسمت بلغة شعرية فياضة بالصور الشعرية المعبرة ، وأساليب تعبيرية موحية ، وكأن الشاعر أراد من خلال ذلك التعبير عن مدى تمكنه من لغته الشعرية ,وجعلها مناسبة لمقامات ما يريد القول فيه ، من ذلك رائيته المشهورة في مدح المتوكل التي قال فيها[57] :

---

[56]() ديوانه : 35-37 .

[57]() ديوانه : 141-143 .

عيون المها بين الرُّصَافةِ والجِسْرِ جلبْنَ الهوى مِنْ حيثُ أدْري ولا أدْري

أعدْن ليَ الشوقَ القديمَ ولَمْ أكُنْ سلوتُ ولكنْ زِدنَ جمْراً على جمرِ

سَلِمْنَ وأسلَمنَ القلوبَ كأنّما تُشكُ بأطرافِ المثقفة السُّمْرُ

والقصيدة طويلة وملأى بالصور الشعرية المركبة المتصلة ، وبنيت من لغة شعرية فيها مقومات الأسلوب الشعري ، وقصد الشاعر ذلك ، إذ إنه افتخر قائلاً[58] :

وما أنا ممّنْ سارَ بالشِّعر ذِكْرُهُ ولكنَّ أشعاري يُسيِّرها ذكري

وللشِّعر أتباعٌ كثيرٌ ولم أكنْ له تابعاً في حالِ عُسرٍ ولا يُسْرِ

وما الشِّعرُ ممَّا استظِلُّ بِظِلِّه ولا زادني قدْراً ولا حطّ مِنْ قَدْري

وقد تضمنت الصفحات السابقة أشعاراً فاضت بالألفاظ والتراكيب التي توحي بمظاهر الحضارة في هذا المجال، وتنوع الشاعر في أساليبها .

ثالثاً : الإيقاع

لا يخفى على الدارسين المختصين أهمية الإيقاع في النص الشعري ، فهو عنصرٌ أساسيٌ فيه إلى جانب الخيال والعاطفة ، واقربُ تعريفٍ له((وحدة النغمة التي تتكرر على نحوٍ ما في الكلام أو في البيت ، أي توالي الحركات والسكنات على نحو منتظمٍ في فقرتين أو أكثر من فِقَرِ الكَلامِ أو في أبيات القصيدة)) [59] ويتولد من ترتيب الصوائت أو الحركات على نحو معين في الكلام يؤدي هذا الترتيب نوعاً من الأصوات المنتظمة على وفق هيأة مخصوصة .

ويكاد يتفق معظم الدارسين على أنَّ المظاهر الحضارية في موسيقى الشعر ليست بمستواها في جوانب الشعر الأخرى ، كالمضمون واللغة والتصوير ، ولنقل ان مظاهر التجديد في الموسيقى الشعرية تكاد تكون محدودة أو معدومة ، إذْ إنَّ الشاعر كما هو حال الشعراء في العصر العباسي لم يخرجوا عمّا عرف بعمود الشعر ، ومن عناصره الإيقاع بنوعيه الداخلي والخارجي,وعلى الرغم من ذلك فإنَّ شعراء العصر العباسي أخذوا يعدلون في أشعارهم عن ((النظم في الأوزان الطويلة المُعَقَّدة إلى النظم في الأوزان الخفيفة البسيطة)) [60] ليتلاءم الشعر مع طرائق الحياة الجديدة في معظم جوانبها, وليس الشاعر عليُّ بن الجهم ببعيد عن هذه الأجواء ولاسيما أنه ابن الحضارة آنذاك الذي ترعرع في أحضانها,وذاق حلاوة مباهجها,ولطالما كان نديم الخلفاء العباسيين قبل أن يسوء حاله مع بعضهم أُخريات حياته.

ولعلنا نستطيع القول إن المظهر الحضاري الذي لمسناه في شعر الشاعر كونه قد أكثر من النظم على بحر الرجز ، اذ جاء في المرتبة الأولى, ثم يأتي بعده الطويل فالكامل فالخفيف فالسريع والوافر والبسيط والمتقارب والرمل والمنسرح[61]، وهذا ملفت للنظر ، إذ إنَّ بحر الرجز ذا مكانة متواضعة بين بحور الشعر العربي ، ويسمّى بمطية الشعراء ، وغالباً ما ينظم عليه المبتدئون منهم وهو اقرب الأبحر الى النثر [62] ، وربما كان إكثار ابن الجهم من النظم عليه لكونه ساير العصر الذي ينتمي اليه ، اذ كثر النظمُ بهذا البحر في أواخر العهد الأموي وأوائل العصر العباسي[63],وربما يعود كذلك إلى سمة الارتجال التي كان الشاعر يتبعها في قسم من أشعاره,علاوة على سهولة النظم على هذا البحر لسهولته وخفته,وكونه يتماشى مع طبيعة الحياة آنذاك التي اتسمت بالسهولة والسرعة, زد على ذلك أن مضامين معظم أشعاره-وكما نوَّهنا إلى ذلك-حفلت بالموضوعات التي تعالج شؤون الحكم, سواء في مدائحه التي وجَّهها لقسم من الخلفاء الذين عاصرهم, أو في أهاجيه لمن كان مختلفا معهم,وجاءت معظمها أقرب إلى لغة النثر وطابع الشعر التعليمي, ولذلك فقد أكثر من النظم عليه .وأما ظواهر الإيقاع الأخرى فقد احتوى شعر الشاعر أنماطاً من الإيقاع

---

[58]() ديوانه : 149 .

[59]() النقد الأدبي ، محمد غُنيمي هلال : 461 .

[60]() العصر العباسي الأول:193.

[61]() اعتمدنا في هذه النتيجة والحكم على إحصائنا للبحور التي نظم عليها شعره من خلال تتبعنا لها بحسب ورودها في الديوان.

[62]() ينظر : فن التقطيع الشعري والقافية ، د. صفاء خلوصي : 123 .

[63]() ينظر : المصدر نفسه: 124 .

الداخلي كالتكرار بأنواعه (من حيث الحروف والألفاظ والتراكيب) والتقابل والتصريع والتجنيس ، وهذه المظاهر وإنْ كانت لاتُمثِّل سمة منفردة عند الشاعر موضوع البحث,إذِ اشترك فيها مع شعراء عصره مع شيوع الفنون البديعية آنذاك, ولكنَّ وراء تلك السمة مسوِّغاتٍ حضارية.

فمِنْ النماذج التي تجسدت فيها ظواهر التكرار قوله[64] :

هِـيَ النّفـسُ مـاحمَّـلتَها تَتَحمَّـلُ ... وَلِلدَّهْرِ أيّـامٌ تَـجُـورُ وتعْدِلُ

وعَـاقِبـةُ الصّبْر الجميـلِ جميلَـةٌ ... وأفْضَـلُ أخْـلاقِ الرجـالِ التفَضُّلُ

ولاعَـارَ أنْ زالـتْ عنِ الحـرِّ نِـعْمَـةٌ ... ولكِنَّ عَـاراً أنْ يـزُولَ التَّـجمُّلُ

ومَاالمـالُ إلّـا حسـرَةٌ إنْ تـركْـتَـهُ ... وغُنْـمٌ إذَا قدَّمـتَهُ مُـتَعَجَّـلُ

ولِلْخـيْرِ أهْـلٌ يَسـعَدونَ بِفِعْلـهِ ... وَلِلـنَّاسِ أحْـوالٌ بِهِمْ تتَنَقّلُ

وَلِلّهِ فينـا عِلْـمُ غَيـبٍ وإنَّمـا ... يُوَفِّـقُ مِنـَّا منْ يَشـاءُ وَيَخْذِلُ

في هذه الأبيات أكثر من ظاهرة من ظواهر الإيقاع, منها تكرار صوت((اللام))أكثر من خمس وعشرينَ مرة, وتكرار صوت((الراء)),فضلا عن تكرار ألفاظ معينة ولكن بصيغٍ واشتقاقات مختلفة كماً في:((حمَّلْتها تتحمَّلُ))و((الجميلِ جميلةٌ,التَجَمُّلُ))و((أفضَلُ التفَضُّلُ))وهو نوع من الجناس يطلق عليه التجنيس الاشتقاقي, إذْ تختلف الألفاظ على وفق هذا النوع من الفن البديعي من حيث نوع الصيغة, إلاَّ أنَّها تعود إلى أصل لُغويٍّ واحد, ولا يختلف معناه العام [65],وثمَّة تكرارات من نوع آخر, وهي تكرار((عار)) مرتين و((زالتْ يزول)), وتكرار الجار مع اختلاف المجرور((للدَّهر, للخيرِ,للناسِ,للهِ))إذ اعتمد فيه الشاعر على تقديم ماحقه التأخير في باب الجار والمجرور الواقع خبرا على المبتدأ,وليس ذلك فقط,بل استثمر الشاعر أسلوب التقابل في أكثر من موضع من أبياته,ومنها:((تجورُ وتعدلُ))و((ولاعارَ ولكنَّ عاراً))و((حسْرة وغُنْمٌ))و((يُوفِّق ويخذُلُ)).ويبدو أنَّ الشاعر قد وظَّف هذه الألوان من التكرار والتجنيس وصور التقابل في جانبين: **الأول:** دلالي يتصل بمضمون الأبيات,وأما **الثاني:** فيتعلَّق بموسيقى الشعر وإيقاعه,والجانبان كلاهما متصلان لايمكن أن يؤدي أحدهما دوره بمعزل عن الآخر.

وفي موضع آخر نلمح هذا النهج الأسلوبيَّ في نظمه, إذْ قال[66]

خلِيلَيَّ مـا لِلْحُبِّ يـزْدَادُ جِـدَّةً ... علـى الدَّهْـرِ والأيـامُ يبْلـى جَدِيـدُها

ومـا لِعُـهودِ الغَانيَـاتِ ذَمِيمَـةٌ ... وَلَيْلـى حَـرَامٌ أنْ تُـذمَّ عُهـُودُهـا

ألَمَـتْ وجُنـحُ اللَّيْلِ مُرْخٍ سُدوله ... ولِلسِجْنِ أحْـراسٌ قَلِيـلٌ هُجُودُهـا

فقُلْتُ لـها أنَّـى تَجَشّـمْتِ خُطَّـةً ... يُحَـرِّجُ أنفَاسَ الرِّيَـاحِ وُرُودُهـا

فقَالَـتْ أطعْنـا الشَّوقَ بعَـدَ تَجَلُّدٍ ... وَشَرُّ قُلُوبِ العاشـقينَ جَلِيـدُهـا

في هذه الأبيات يحاول الشاعر تجسيد تجربته في علاقة الحب التي كانت تشده إلى محبوبته((ليلى)) التي كانت تبادله المشاعر ذاتها,ولعله قصد من وراء ذلك أن يرمز إلى علاقته مع الخليفة العباسي المتوكل معاتبا إياه لرميه في غياهب السجن,ونلمح فيها استثمار الشاعر لعنصر التقابل بين عدة صور,منها:تجدد أمر الحب بتجدد الأيام,وتلاشي ماسواه بتقادم الأيام,والوصفان المتناقضان لعهد الحبيبة وعهود الغواني اللائي لايدوم لهُنَّ عهدٌ على أمرٍ إلاَّ و ينقضْنَهُ,ومنها حالة هجوع الليل ويقظة أحراس السجن المطبق على الشاعر,وفي هذا إيحاء بالحالة النفسية,والمشاعر المتناقضة التي تؤرِّق الشاعر,وله وظيفة إيقاعية تابعة لدوره الدلالي,ولذلك فقد وظف الشاعر عنصرا إيقاعيا آخر,وهو الجناس في:((جِدَّة جديدها,ذميمة تُذَمُّ,تجَلُّد جليدها))فضلا عن مجيء القافية[67]على وزنٍ صرفيٍّ متشابه,وهو((فَعِيل)) في:جديدها وجليدها,ووزن((فُعُولُ)) في:عُهُودُها وهُجُودُها و ورُودُها.وللسائل أن يسأل أين مظاهر الحضارة في

---

[64]() ديوانه:163.

[65]() ينظر:معجم المصطلحات البلاغية وتطورها,د.أحمد مطلوب:2/61.

[66]() ديوانه:50و51.

[67]() على وفق عدِّ الكلمة الأخير كاملة قافية.

ذلك؟وللإجابة على ذلك لابد من الرجوع إلى مابدأنا به البحث في الحديث عن الحضارة,ونخص الحضارة في العصر العباسيِّ أو مظاهر الحضارة,إذ بلغ الرُّقِيُّ أسمى ذرى الحضارة وأرفع قِمَم المدنية,فعمَّ الأمنُ وكثُرَ الخير,وتعدَّدت مناحي الرزق,وتفرغ أفراد المجتمع آنذاك للتمتع بمنجزات الحضارة في الملبس والمأكل والمسكن,ورفلوا في أبهى أنواع الحُلَلِ,فارتدَوا الخَزَّ والديباج,واستبدلوا بالعباءة المطارف والغلائل,وبالمضارب التي بُسُطها الرِّمال قصورا شامخة فُرُشُها الطنافِسُ والبُسُط,الزاهية بألوانٍ مُبْهِجة تسرُّ الناظرين,وإذا كان الشعر في أحد جوانبه يُمَثِّل نِتاجاً حضارياً,ويتَجَسَّدُ عليه المستوى الحضاري الذي تبلُغُه الأممُ,فلا عجب إذا تأثَّر بهذه الألوان الجديدة,وبدا في ثوب منَ الزُّخرُفِ والتنميقِ والزينةِ,ليس له به إلْفٌ في سابقِ زمانه,ولاعجبَ إذا سار الشِّعْرُ في طريق البديع والصَّنعةِ سيراً حثيثا[68],ومن المعلوم أن معظم فنون البديع يُسْهِمُ في تكوين الإيقاع الداخليَّ,وأطلق عليه القدماء مصطلحَ الصَّنعةِ,تلك الصَّنعةُ مرتبطة بالفنِّ ارتباطا تلازمياً,وتُمَثِّلُ مُنْجَزاً حضاريا,ومظهرا من مظاهِرِ الحضارة في شؤونِ الحياة كُلِّها,ولاسيما الإنتاج الأدبي منْ شِعْرٍ ونثرٍ,وهذا الملمح ليس خاصا بعليِّ بن الجهمِ بل بالشعراء العباسيين عامة.

الخاتمة والنتائج

وفي نهاية البحث لابد مِنَ الإشارة الى ما تمخض عنه من نتائج تتعلق بالمظاهر الحضارية في شعر علي بن الجهم .

ان المتأمل لشعر هذا الشاعر يجده قد واكب الحركة الحضارية في أوج تألقها في العصر العباسي ، إلا ان مظاهر التأثر قد تفاوتت في عناصر النص الشعري لدى الشاعر.

ومن الجدير الإشارة إلى مسألة مهمَّة تتعلَّقُ بمظاهر البداوة في شعر الشاعر,إذ إنَّ الباحث وبعد قراءة الديوان وفحصه لم يعثر على أي مظهر بدويٍّ في شِعْرِ الشاعر,وأمّا قوله [69]:

أنْـتَ كالْكَلـبِ فـي حِـفَاظِكَ لِلـوُدِّ وَكَالتَّيْـسِ فـي قِـراعِ الخُطُـوبِ

أنْـتَ كالدَّلْـوِ لا عَدِمـتُكَ دَلْـوَاً مِنْ كِـبَارِ الـدِّلا كَثِيرِ الذّنـُوبِ

فقدْ علَّق عليهما مُحقِّقُ الديوان بقوله:((ذكر الشيخ مُحْيي الدين بن عربي في:مُحاضرة الأبرار ومُسامرة الأخيار أنَّ عليَّ بن الجهمِ مدح المتوكل بقصيدة منها هذان البيتان في خبر يظهر عليه الوضعُ.والذي نراه-إنْ صحت نِسبة البيتين له-أنَّه قالهما في أحد مجالس المتوكل يعبث ببعض النُّدماء أو المُضحِكينَ))[70],ومايؤيِّد هذا الرأيَ أنَّنا لم نعثر على أشعار أخرى في مضمون مقارب,بل على العكس من ذلك فقد فاضت أشعاره بمظاهر الحضارة,وأجواء المدينة.

ومنْ حيث المضمون فقد رأينا الشاعر استوحى كثيراً من المظاهر الحضارية المتعلقة بالإسلام الحنيف وعقائده وحُكْمه ، ولاسيما في مسائل التوحيد والقضاء والقدر ، وشرائع الحكم والعبادات، وما يتعلق بنظام الحكم في الإسلام المتمثل بالخلافة وألقاب الخلفاء والوزراء .

ومن المظاهر الحضارية الأخرى التي أعطت تميزاً للشاعر بين شعراء عصره وصف العمران من قصور ورياض ومراكب نهرية ووسائل الصيد ، اذ أكثر الشاعر من هذه المضامين ، وتفنّن في أوصافها ، وفصّل ، حتى كأنّ القارئ يعاينها عن كثب .

وفيما يتعلق بلغة شعره في الجانب الحضاري فقد رأينا أسلوبين لغويين لدى الشاعر ، **الأول :** اتسم بوضوح العبارة والتقريرية في الخطاب حتى اقترب من لغة النثر ، ولاسيما في شعره الإسلامي والسياسي ، **الثاني :** استعمل فيه فنون التصوير المختلفة ، واستعان بأساليب شعرية راقية كما رأيناه في شعره الوصفي الذي يتناول فيه مظاهر العمران العباسي .

ولابد من الإشارة الى مسألة مهمة تتعلق بمظاهر الحضارة في إيقاع الشعر وموسيقاه ، إذْ إنَّ المظاهر الحضارية في هذا العنصر الشعري ليس بمستواها في بقية العناصر ولاسيما فيما يتصل بأوزان الشعر أو الإيقاع الخارجي,أما الإيقاع الداخلي فقد رأينا مظاهر الصَّنْعة مُتجلِّية فيما عُرِفَ بالبديع,ومن المعلوم أنَّ جُلَّ فنون البديع تُشَكِّل عناصر الإيقاع الداخلي في القصيدة .

---

[68]() ينظر:الصِّبغُ البديعِيُّ في اللغة العربية,د.أحمد إبراهيم موسى:52و55و56.

[69]() ديوانه:117.

[70]() ينظر:ديوانه,هامش(3):117.

المصادر والمراجع

1-الأدب وفنونه,د.عزُّالدين إسماعيل, دار الفكر العربي, ط6, 1976م.
2-الأسلوب دراسة لغوية إحصائية, د.سعد مصلوح,دار البحوث العلمية, ط1, 1400هـ- 1980م.
3-الأغاني, أبو الفرج علي بن الحسين القرشي الأصفهاني,تح:إبراهيم الأبياري ,دار الكتب-مصر,1969م.
4-تاريخ بغداد, أحمد بن علي أبوبكر الخطيب البغدادي,دار الكتب العلمية-بيروت.
5-تحليل النص الشعري _دراسة ماوراء نقدية في البنيوية العربية,سعيد عبدالهادي المرهج,دار الشؤون الثقافية العامة,بغداد,ط1 ,2008.
6-التصوير البياني في شعر المتنبي,د.الوصيف هلال الوصيف إبراهيم,مكتبة وهبة القاهرة,ط1, 1426هـ-2006م.
7-التفسير الإسلامي للتأريخ,د.عماد الدين خليل,منشورات مكتبة تموز_نينوى-العراق,ط4 ,1986م.
8-التفسير الكبير, (مفاتيح الغيب) ، فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية – طهران، ط2.
9-الحضارة,د.حسين مؤنس,سلسلة عالم المعرفة,العدد1,الكويت,يوليو,1977م.
10-ديوان علي بن الجهم,تح: خليل مردم بك,لجنة التراث العربي-بيروت,ط2 .
11-الصِّبغُ البديعيُّ في اللغة العربية,د.أحمد إبراهيم موسى,دار الكاتب العربي للطباعة والنشر-القاهرة,1388هـ-1969م.
12-صِدام الحضارات,صامويل هنتنجتون,ترجمة:طلعت الشايب,ط2 ,1999.
13-العصرالعباسيُّ الأول,د.شوقي ضيف,دار المعارف-مصر,ط14.
14-العصرالعباسيُّ الثاني, د.شوقي ضيف,دار المعارف-مصر,ط14.
15-فن التقطيع الشعري والقافية,د.صفاء خلوصي,دار الشؤون العامة,بغداد,ط6, 1987م.
16-الفهرس الموضوعي لآيات القرآن الكريم,عني بجمعه وترتيبه:محمد مصطفى محمد,وزارة الأوقاف والشؤون الدينية-الجمهورية العراقية,1403هـ-1983م.
17-لسان العرب, العلامة ابن منظور, اعتنى بتصحيحه :أمين محمد عبدالوهَّاب و محمد الصادق العبيدي,دار إحياء التراث العربي و مؤسسة التأريخ العربي-بيروت,ط3 .
18-اللسانيات والدلالة,د.منذر العياشي,مركز الإنماء الحضاري,ط2, 2007م.
19-مباحث تأسيسية في اللسانيات, عبد السلام المسدي,دار الكتاب الجديد-طرابلس-ليبيا,ط1 ,2010م.
20-مختار الصحاح,محمد بن أبي بكر الرازي,دار الرسالة الكويت,1420هـ-1983م.
21-مروج الذهب ومعادن الجوهر,أبوالحسن علي بن الحسين المسعودي,دار الأندلس-بيروت, ط6 ,1984م.
22-مشكلة الإنسان,د.زكريا إبراهيم,مكتبة مصر-القاهرة.
23-مشكلة الفن,د.زكريا إبراهيم, مكتبة مصر- القاهرة
24-معجم الشعراء,محمد بن عمران بن موسى,تح:عبد الستار أحمد فراج,دار إحياء الكتب العربية-دمشق.
25-معجم المصطلحات البلاغية وتطورها,د.أحمد مطلوب,مطبعة المجمع العلمي العراقي,ط1,1406هـ-1986م.
26-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف,وضعه:محمد فؤاد عبدالباقي,دار الحديث-القاهرة,ط1 ,1417هـ-1966م.
27-مقاييس اللغة,أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا,اعتنى به:د.محمد عوض مرعب,دار إحياء التراث العربي-بيروت,ط1, 1422هـ-2001م.
28-مقدمة ابن خلدون,ابن خلدون,دار القلم-بيروت.
29-مكانة العقل في الفكر العربي,بحوث ومناقشات المجمع العلمي العراقي,مركز دراسات الوحدة العربية و المجمع العلمي العراقي,ط2 ,1998م.
30-المورد قاموس إنكليزي-عربي,منير البعلبكي,دار العلم للملائين-بيروت,ط40 ,2006م.
31-النقد الأدبي,د.محمد غنيمي هلال,دار الثقافة و دار العودة,-بيروت.
32-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان,أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان,تح:د.إحسان عباس,دار صادر-بيروت.